# أهمية المجالسة والمشافهة والمصاحبة للعلماء في تلقي العلم

قال الله تعالى : ( مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ) آل عمران/79

وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: هُمْ أَرْبَابُ الْعِلْمِ سُمُّوا بِهِ لِأَنَّهُمْ يُرَبُّونَ الْعِلْمَ، وَيَقُومُونَ بِهِ وَيُرَبُّونَ الْمُتَعَلِّمِينَ بِصِغَارِ الْعُلُومِ قَبْلَ كِبَارِهَا، وَكُلُّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ الشيء وَإِتْمَامِهِ فَقَدْ رَبَّهُ يَرُبُّهُ ... " انتهى ، من "تفسير البغوي" (1/463) . وينظر : "تفسير الطبري" (6/544) .

وعن أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ( مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ : إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ : إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً ) رواه البخاري (5534) ومسلم (2628) .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: " فيه تجنب خلطاء السوء ومجالسة الأشرار وأهل البدع والمغتابين للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحض على مجالسة أهل الخير وتلقى العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة " انتهى من " اكمال المعلم" (8 / 108).

* وعَنْ شَرِيكِ بْنِ نَهِيكٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَمْشَاهُ وَمَدْخَلُهُ وَمَخْرَجُهُ وَمَجْلِسُهُ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ. (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)
* وعَنْ عَبَّاسِ بْنِ جُلَيْدٍ الْحَجْرِيِّ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ : لَوْلَا ثَلَاثُ خِلَالٍ لَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : وَمَا هُنَّ ؟ فَقَالَ : لَوْلَا وُضُوعُ وَجْهِي لِلسُّجُودِ لِخَالِقِي فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَكُونُ تَقَدُّمُهُ لِحَيَاتِي ، وَظَمَأُ الْهَوَاجِرِ ، وَمُقَاعَدَةُ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ الْكَلَامَ كَمَا تُنْتَقَى الْفَاكِهَةُ. (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)
* ويقول سفيان الثوري: كان الضحاك بن مزاحم يُعلِّم ولا يأخذ أجرًا.
* وذكر الذهبي في (سير أعلام النبلاء): (أنَّ الضحاك رحمه الله كان فقيه مكتبٍ كبيرٍ إلى الغاية، فيه ثلاثة آلاف صبي، فكان يركبُ حمارًا ويدور على الصبيان) (السير) (4/ 599).

يقول الإمام أبو يوسف القاضي: (مات ابنٌ لي فلم أحضر جهازه ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي؛ مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيءٌ - يعني درس علمٍ - لا تذهب حسرته عني) (مناقب أبي حنيفة) للمكي (1/ 472) نقلًا عن (صلاح الأمة) (1/ 217).

قال ابن مفلح رحمه الله تعالى : "وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه وقد روي هذا المعنى عن جماعة " انتهى من "الآداب الشرعية" (1 / 418).

* وكان ابن الجوزي يقول: شيخنا فلان حضرنا عنده واستفدنا من بكائه أكثر مما استفدنا من علمه .
* يرُوى أنَّ الأحنف بن قيس قال: "كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم، كما نتعلم الفقه".
* وكان أصحاب عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يرحلون إليه، فينظرون إلى سمته، وهديه، ودَلَّه، قال: "فيتشبهون به" . غريب الحديث للقاسم بن سلام 3-383
* وقال ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم. ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (1/79).
* قال القاضي أبو يعلى رحمه الله: روى أبو الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين بن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول: "كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زُهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسنَ الأدب، وحسن السمت" ((شرح منتهى الإرادات)) للبهوتي (1/9).
* وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد لابنه: "يا بني، إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث" ((الجامع)) للخطيب (1/80).
* وقال الأعمش: كانوا يأتون همام بن الحارث يتعلمون من هديه وسمته... "موسوعة الأخلاق ص (81)" خالد الخراز
* قال عبد الله ابن الإمام أحمد رحمهما الله تعالى : "حدثني أبي قال حدثنا عثمان بن عثمان قال: سمعت البتي يقول: كان يقال: ما رأينا رجلا قط أشبه هديا بعلقمة من النخعي، ولا رأينا رجلا أشبه هديا بابن مسعود من علقمة، ولا كان رجل أشبه هديا برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن مسعود " انتهى من " العلل ومعرفة الرجال" (2 / 194).
* والنخعي تلميذ علقمة، وعلقمة تلميذ ابن مسعود رضي الله عنه، وابن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
* كما أن الإمام مسلم تلميذ الإمام البخاري، والإمام البخاري تلميذ الإمام أحمد. والإمام أحمد تلميذ الإمام الشافعي. والإمام الشافعي تلميذ الإمام مالك. والإمام مالك تلميذ الإمام نافع. والإمام نافع تلميذ الإمام الأعرج. والإمام الأعرج تلميذ الإمام أبو هريرة رضي الله عنه. والإمام أبو هريرة صاحب وتلميذ رسول الله صل الله عليه وسلم.

وقال الذهبي رحمه الله تعالى: " قال أبو بكر بن إسحاق الصبغي، وقيل له: ألا تنظر إلى تمكن أبي علي الثقفي في عقله؟ قال: ذاك عقل الصحابة والتابعين من أهل المدينة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: إن مالك بن أنس كان من أعقل أهل زمانه، وكان يقال: إنه صار إليه عقول من جالسهم من التابعين، فجالسه يحيى بن يحيى النيسابوري، فأخذ من عقله وسمته، حتى لم يكن بخراسان مثله، فكان يقال: هذا عقل مالك وسمته. ثم جالس يحيى محمدُ بن نصر سنين، حتى أخذ من سمته وعقله، فلم ير بعد يحيى من فقهاء خراسان أعقل منه. ثم إن أبا علي الثقفي جالس محمد بن نصر أربع سنين، فلم يكن بعده أعقل منه " انتهى من "تاريخ الإسلام" (6 / 1046 – 1047).

* قال ابن مفلح رحمه الله: "عن الأعمش قال: كانوا يتعلمون من الفقيه كل شيء حتى لباسه ونعليه.. الآداب الشرعية ج2 ص145
* وقال عبد الرحمن بن مهدي: كنا نأتي الرجل ما نريد علمه ليس إلا أن نتعلم من هديه وسمته ودله، الآداب الشرعية 1-3 ج2 ص105
* وكان علي بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئا إلا ينظروا إلى هديه وسمته. (بلوغ الغاية من تهذيب الهداية للغزالي ص7)
* وقال عبد الله بن أحمد سمعت ابن علي بن المديني يقول: رأيت في كتب أبي ستة أجزاء مذهب أبي عبد الله وأخلاقه، ورأيت أحمد يفعل كذا ويفعل كذا وبلغني عنه كذا وكذا " انتهى من "الآداب الشرعية" (2 / 149).

وكان الخليفة المأمون قد وكَّل الفرَّاء يلقنُ ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفراءُ أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرَا إلى نعل الفرَّاء يقدِّمانها له، فتنازعا أيهما يقدِّمها، ثم اصطلحا على أن يقدِّم كلُّ واحدٍ منهما فردًا، فقدَّماها، وكان المأمون له على كل شيءٍ صاحبُ خبرٍ، فرفع إليه ذلك الخبر، فوجَّه إلى الفرَّاء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: مَن أعزُّ الناس؟ قال: ما أعرف أحدًا أعزَّ مِن أمير المؤمنين. قال: بلى، مَن إذا نهض تقاتَلَ على تقديم نعليه وليَّا عهدِ المسلمين، حتى رضي كل واحدٍ منهما أن يقدِّم له فردًا. قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما مِن ذلك، ولكن خشيت أنْ أدفعهما عن مكرُمةٍ سبَقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفةٍ حصلا عليها. قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك، لأوجعتك لومًا وعتبًا، وألزمتك ذنبًا، وما وضَعَ ما فعلاه مِن شرفهما؛ بل رفع مِن قدرهما، وبيَّن عن جوهرهما، ولقد ثبتت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبرُ الرجُل - وإن كان كبيرًا - عن ثلاث: تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلِّمِه العلمَ. وقد عوَّضتُهما بما فعلاه عشرين ألف دينارٍ، ولك عشرةُ آلاف درهم على حُسن أدبك لهما. زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين. ج 4 ص179 (تاريخ بغداد) للخطيب (14/15) و(الوفيات) لابن خلكان (2/228)

قلت ويخشى على طالب العلم الذي لا يخالط العلماء ولا يصاحبهم ولا يأخذ عنهم العلم مشافهة أن يكون خاليا من الصفات التي هي خلاصة العلم، ويصبح عنده قشور العلم أو مجرد معلومات عن القرآن والسنة بلا روح ولا نور ولا قدوة. بل لربما تولد فيه العجب والغرور والإستعلاء والرياء وحب الرياسة والشهرة والظهور، فليس له من موجه أو أسوة أو قدوة ليقوده ويعلمه ويزكيه وينصحه ويرى فيه القدوة الحسنة التي تعمل بما تعلم. ألا ترى كيف صحب الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضره وسفره وحله وترحاله وجميع شئون حياته حتى استناروا بنوره واهتدو بهداه!؟

فإن صحبة العلماء والجلوس في حلقاتهم يعالج أمورا في القلوب ويربي النفوس ويغرس في طالب العلم غرسا لا تغرسه كتب العلم وشاشاته. ويستفيد الطالب المصاحب للعلماء من ورعهم وتقواهم والنظر في هديهم وعبادتهم وأخلاقهم وزهدهم وأدبهم وحرصهم على الفرائض والنوافل والسنن، يرى في شيوخه صفات الصالحين ويرى فيهم العلم الذي يتعلمه منهم واقعا عمليا في حياتهم.

ولا بأس من تلقى العلم عن طريق الأجهزة فإن سامعه له أجر الإستماع كما نرجوا الله تعالى ان ينفعه بما سمع وأن يعمل بما علم. ولكن يظل التلقي من أفواه العلماء ومصاحبتهم وملازمتهم لا يعلى عليه طريق في تلقي العلم.